مقدمة برنامج دليل

محاضرة آداب طلب العلم

فضيلة الشيخ/ أحمد بن حمد الونيس

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه واستنّ بسنته إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد.. فأسأل الله -عز وجل- في بداية هذا البرنامج أن يكون برنامجًا نافعًا مُباركًا، وأن يرزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح وأن يصلح نياتنا وأعمالنا، وأن يجعلنا جميعا موفقين ومسددين مبتغين ما يرضيه سبحانه وبحمده.

نبدأ هذا البرنامج مستعينين بالله -عز وجل- في محاضرة عن آداب طالب العلم الشرعي، فطلب العلم قربة إلى الله -عز وجل- يتوسَّل بها العبد إلى مرضاة الله -سبحانه وتعالى-، وينبغي لطالب العلم أن يتأدَّب في طلبه للعلم بجملة من الآداب، إذا راعاها في طلبه للعلم فيؤمَّل منه أن يصل إلى مقصوده وهو حصول هذا العلم والانتفاع به، وأن يكون طريقًا إلى دخول جنة الله -عز وجل- والنجاة من ناره.

وقبل البدء في ذكر هذه الآداب المتعلقة بطلب العلم أذكّر نفسي وإخواني بما ورد في فضل العلم الشرعي في كتاب الله -عز وجل- وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، أذكر طرفًا يسيراً من ذلك، وإلا فالآيات والأحاديث والآثار عن الصحابة -رضي الله عنهم- كثيرة جدا.

فمما ورد في كتاب الله -عز وجل- قوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] هذا أمر من الله -عز وجل- لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- أن يسأل ربه أن يتزود من العلم، ولهذا قال بعض الشراح: إن الله -عز وجل- لم يسأل نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يتزود من شيء إلا من العلم، وهذا يدل على شرف العلم وفضله، ولهذا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- امتثل أمر الله -عز وجل- له لما قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] امتثل النبي -عليه الصلاة والسلام- أمر ربه، وسأل الله -عز وجل- أن يزيده من العلم، فقال -عليه الصلاة والسلام-، كما عند ابن ماجة من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما».

ومما ورد في القرآن أيضا قول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] هذا استفهام ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ما المراد بالاستفهام هنا؟ هل أحد يعرف ما المراد بالاستفهام؟ الأصل أن يكون الاستفهام لأجل السؤال ويكون له جواب هل هذا هو المراد؟ المراد بالاستفهام هنا ماذا؟

المراد بالاستفهام هنا النفي، يعني لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قد يقول قائل لِـمَ لَم يؤتَ به على النفي فيقال: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

لماذا أُتي بالاستفهام والمراد النفي؟

هذا أبلغ في كلام العرب؛ لأنّ النّفي إذا جاء بصيغة الاستفهام فهو يفيد النفي ويكون مشربًا معنى التحدي، يعني كأنه يقول لك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأتحدى أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فهذا فيه فضيلة العلم وأنه لا يستوي العالم مع الجاهل.

أيضا مما ورد في كتاب الله -عز وجل- قوله تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] يرفع الله الذين آمنوا منكم، الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالله -عز وجل-

يرفعهم درجات، ومن هؤلاء الذين آمنوا من أوتي العلم وهم العلماء فالله -عز وجل- يرفعهم درجات على غيرهم.

ومما جاء أيضا في فضل العلم في تفسير قول الله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فسّر الحسن البصري -رحمه الله تعالى- وهو أحد التابعين الحسنة في الدنيا قال: العلم والعبادة، والحسنة في الآخرة قال: الجنة.

وأما ما ورد في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-:

فعن معاوية -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من يُرِدِ الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين» أخرجه البخاري ومسلم.

لكن ما المُراد بالفقه في الدين في هذا الحديث «من يُرِدِ الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين» ما المُراد بالفقه؟ هل هو الفقه المُصطلح عليه اليوم الذي تدرسونه في المدارس وفي الجامعات، مادة الفقه المعروفة؟

ليس هذا هو المراد بالحديث، وإنما المراد بالفقه في هذا الحديث وفي نظائره: جميع علوم الشريعة.

فيدخل في هذا الحديث علم العقيدة وعلم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه الاصطلاحي وغير ذلك من علوم الشريعة، كلها داخل في قوله -عليه الصلاة والسلام- «مَن يُرِدِ اللهُ بِي خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» هذا هو المعنى الذي كان معروفًا للفقه في الصدر الأول، يعني ما يمر بك في الكتاب والسنة من ذكر الفقه فالمراد به ماذا؟ الفقه بمعناه العام يشمل جميع علوم الشريعة.

لكن بعد زمان الصحابة -رضي الله عنهم- في زمان التابعين ومن بعدهم اصطُلح على أن الفقه يراد به معنى خاصٌ من علوم الشريعة، وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، يعني علم الحلال والحرام وهو الفقه الذي يعرف اليوم.

أيضا مما ورد في فضل طلب العلم حديث زيد بن ثابت -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «نضّر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلّغه، فرُب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورُب حامل فقه ليس بفقيه» رواه أبو داود، قال: «نضّر الله امرأ» ما معنى: «نضّر الله امرأ»، قالوا المعنى يعني: نعّمهُ الله، فهو دعاء له بالنضارة، والنضارة هي في الأصل الحُسن، حُسن الوجه والبريق.

وإنما أراد بذلك حسن الخُلق والقَدر لمن فقّهه الله -عز وجل- في دينه، ومن هذا المعنى قول الله تعالى عن أهل الجنة ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١] وقال -جل وعلا- ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] فهذا معنى قوله -عليه الصلاة والسلام-: «نضّر الله امرأ سمع منا حديثا» قال سفيان بن عيينة -رحمه الله-: ما من أحد يطلب حديثاً إلا وفي وجهه نضرة.

ومن الأحاديث الواردة في فضل العلم حديث نافع بن عبد الحارث -رحمه الله- وهو كان واليا لعمر -رضي الله عنه- على مكة، فجاء عمر -رضي الله عنه- في زمن خلافته من المدينة إلى مكة فخرج له نافع بن عبد الحارث فلقيه بعُسفان، عُسفان موضع قريب من مكة، فقال له عمر -رضي الله عنه- من استعملت على أهل الوادي؟ ماذا يقصد بأهل الوادي؟ أهل مكة فقال ابن أبزى، يعني استعملت عليهم رجلا يقال له ابن أبزى، فقال: ومن ابن أبزى؟ يسأل عمر، فقال: مولى من الموالي، فقال عمر -رضي الله عنه-: أستخلفت على أهل الوادي مولى؟ ظن عمر أنه ليس له شأن وليس له كبير قدر، فقال يا أمير المؤمنين: إنه قارئ لكتاب الله، عالمٌ بالفرائض، فقال عمر -رضي الله عنه-: أما إن نبيكم -صلى الله عليه وسلم- قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» فهذا الرجل مولى ولكن رفعه الله -عز وجل- بالعلم والقرآن، والحديث أخرجه مسلم في الصحيح.

مما يدل على فضل العلم أيضاً أن رجلاً قدم على أبي الدرداء -رضي الله عنه- وكان أبو الدرداء آنذاك بدمشق، فقال له أبو الدرداء: ما أقدمك يا أخي؟ فقال حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: أما جئت لحاجة؟ قال لا ، قال أما قدمت لتجارة؟ قال لا، قال ما جئت

إلا في طلب هذا الحديث؟ قال نعم، قال فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر».

حديث عظيم، تأمل في هذا الحديث كم فيه من فضيلة لطلب العلم، «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى جنة»

هذه الفضيلة الأولى، احتسب الأجر وأنت تذهب إلى مدرستك أو إلى معهدك أو إلى جامعتك وأنت تطلب العلم في هذه المحاضن التربوية أنك تسلك طريقا يوصلك إلى الجنة، هذه الفضيلة الأولى.

الفضيلة الثانية: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم» من باب إكرام طالب العلم، وتوقير طالب العلم ومعرفة قدر طالب العلم.

«وإن العالِم ليستغفر له من في السماوات» من الذين في السماوات؟ الملائكة. «ومن في الأرض» يستغفر لمن؟ للعالِم، «حتى الحيتان في الماء»، وجاء في رواية: حتى النملة في جحرها، تستغفر لمن؟ للعالم تقول: اللهم اغفر له، تقول: اللهم اغفر له، هذا فضل عظيم.

ثم قال: «وفضل العالم على العابد»، الآن العابد الذي يقوم الليل ويصوم النهار ويقرأ القرآن ويذكر الله عابد، ومع ذلك العالم أفضل منه، ما قدر هذا الفضل؟ قال كفضل القمر على سائر الكواكب.

انظر للقمر في ليلة البدر وانظر إلى ضوئه وانظر إلى سائر الكواكب كيف يكون ضوؤها؟ يعني بالقدر أن ترى نجمة صغيرة لكن القمر كيف؟ ولهذا جاء في الرواية الأخرى أنه -عليه الصلاة والسلام-

قال: «وفضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، كفضل النبي -عليه الصلاة والسلام- على أقل واحد من الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

ثم قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء» واللهِ كفى طالب العلم بهذا شـرفًا، أن يكون وريثًا للأنبياء، ويرث منهم ماذا؟ ليس الدينار ولا الدرهم، وإنما يرث منهم العلم، ولهذا قال: «إن الأنبياء لَم يورثوا دينارًا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر» أخرجه الترمذي.

مما يدلُّ أيضًا على فضل العلم حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا حسـد إلا في اثنتين» الحسـد هنا يراد به الغبطة، ما معنى الغبطة؟ أن تتمنى مثل ما عند أخيك من النعمة من غير أن تتمنى زوالها عنه، أما إذا تمنى زوال النعمة عن أخيه فهذا هو الحسـد المذموم الذي هو من كبائر الذنوب عياذا بالله.

لكن الحسـد المحمود، أو قد يكون مباحا؛ لأن الغبطة على قسـمين، قد تكون مرغبا فيها مطلوبة شرعـًا، وقد تكون مباحة.

مثال ذلك: إذا حفِظ أخوك المسلم القرآن وأنت لم تحفظ، فتغبطه، هذه الغبطة ما حكمها؟ مستحبة، لأنك تتمنى أن تحفظ القرآن كما حفظ هو القرآن ولا تتمنى أن يزول هذا عنه.

طيب لو رأيته على شـيء من الدنيا معه سـيارة ثمينة مثلاً أو في بيت واسـع أو نحو ذلك من أمر الدنيا، فتغبطه، هذه الغبطة ما حكمها؟ مباح، لأنه في شـيء مباح، لكن أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك هذا هو الحسد المدموم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق»، وانظر إلى هذا التعبير النبوي الدقيق فسـلطه، تسـلط على المال يعني بقوة وبكثرة على هلكته، أهلك المال يعني أفناه، لكن في أي شيء؟ في الحق، في وجوه الخير في وجوه البر وجوه الطاعة، هذا يُغبط.

«ورجل آتاه الله الحكمة»، المراد بالحكمة يعني العلم، قال: «ورجل آتاه الله الحكمة» يعني العلم «فهو يقضي بها ويعلمها» ما معنى يقضي بها إن كان قاضيا يقضي بالعلم، طبعا القاضي يقضي بين المختصمَين، وإن كان مفتيا يقضي بين المستفتيَيْن، كل هذا يدخل في القضاء، إلا أن القضاء يكون فيه إلزام والفتوى ليس فيها إلزام، قال: «ويُعلّمُها» يعني يجلس لتعليم الناس هذه الحكمة وهي العلم.

مما ورد أيضا في السنة حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له».

صدقَة جارية يعني مثل الأوقاف والوصايا ونحوها مما يجري أجره ويستمر لمن بذله، أو أن يُجري عينا أو يحفر بئرا أو أن يورّث مصحفا يُقرأ فيه ونحو ذلك.

أو علم يُنتفع به وهذا هو الشاهد من إيراد الحديث هنا.

العلم الذي يُنتفع به قد يكون بتدريس العلم، وقد يكون بتصنيف الكتب العلمية، وأيهما أبقى؟ نعم أيهما الذي يبقى، تعليم العلم في المساجد والمدارس والجامعات، أو تصنيف الكتب في العلم؟

قال بعض أهل العلم: الذي يبقى هو تصنيف الكتب، ولهذا نجد كتب الأئمة المتقدمين قد وصلت إلينا من القرن الثاني وصل إلينا كتب، لكن قد يُقال في هذا العصر مع وجود هذه الوسائل الحديثة الآن التي تحفظ الدروس فتبقى هذه إلى أن يشاء الله -عز وجل- فيكون هذا وهذا كله من العلم الذي يبقى بإذن الله -عز وجل-.

قال: «أو ولد صالح يدعو له» لماذا قيد الولد بالصلاح؟ لأنه إذا كان صالحًا فهو أرجى أن تُستجاب دعوته، والولد هنا يشمل الذكر ويشمل الأنثى أيضًا، ولهذا جاء عند ابن ماجة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن العبد لتُرفع له الدرجة في الجنة فيقول: يا رب أنّى هذا لي» يعني من أين لهذه

الدرجة العالية «فيقال: باستغفار ولدك لك»، والدعاء للميت من الأبوين أو غيرهما سهل ويسير ما يشُق على أحد، فينبغي أن نكثر من الدعاء لآبائنا وأمهاتنا ومن له حق علينا.

يقول ابن عبد البَـــر -رحمه الله- في جامع بيان العلم وفضله، وهذا كتاب أوصي طلبة العلم بقراءته، كتاب نافع للإمام ابن عبد البر وهو جامع بيان العلم وفضله، قال: "وقالت الحكماء: علم الرجل ولده المخلّد".

كم من العلماء مات وليس له أولاد، انقطع نسله، لكن لم ينقطع علمه، فكان هذا العلم سواء كان بمصنّف أو غيره هو مثل الولد المخلد له.

أنتقل بعد ذلك إلى مسألة مهمة قبل أن أدخل في الآداب، وهي مسألة ما حكم تعلم العلم الشرعي؟

جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أخرجه ابن ماجة، ولكن هل هذا الفرض فرض عين أو فرض كفاية؟ فيه تفصيل، فيقال: ما يتوقف عليه صحة الاعتقاد وصحة العبادة التي هي مطلوبة منك فهذا لا بد أن تتعلمه، يعني أن تتعلم قدرا من علم التوحيد علم العقيدة الذي لا تصح العقيدة إلا به هذا واجب عليك، وأما بقية التفاصيل في الاعتقاد التي لا تلزم كل أحد هذا تعلمها من فروض الكفاية على العلماء.

أيضا ما يتعلق بالعبادة الصلاة والطهارة، من كان عنده مال يجب على أن يزكيه، من توفرت فيه شروط الصيام، من توفرت فيه شروط الحج، هذا لا بد أن يتعلم من العلم الشرعي ما تصح به العبادة، وأما بقية التفاصيل المتعلقة بهذه العبادات فهذه لا تلزم كل مسلم، وإنما يتعلمها العلماء، وجوبها على العلماء من فروض الكفايات.

قل مثل ذلك ما لو كان الإنسان يبيع ويشتري، تاجر، فيجب عليه أن يتعلم ما تَسلم به معاملته من الحرام، يتعلم ما هو الربا حتى لا يقع فيه، وما هو القمار حتى لا يقع فيه، وما هو الغش حتى لا يقع

فيه، ونحو ذلك، وأما بقية مسائل المعاملات الدقيقة، والتي لا يحتاج إليها كل أحد، هذه حكمها فرض كفاية على علماء الإسلام.

إذن نخلُص من هذا أن ما تتوقف عليه صحة العقيدة وصحة العبادة وصحة المعاملة التي يحتاج إليها، هذا لا بد أن يتعلمه، ما زاد عن ذلك من فروع العلم هذا واجب كفائي على العلماء، بمعنى أنه لا بد أن يوجد في البلد من يقوم بفرض الكفاية في تعليم الناس هذه المسائل وإفتائهم فيما يشكل عليهم منها، وبناء على هذا علم الفرائض ما حكمه؟ ما حكم أن نتعلم علم الفرائض؟ هل يجب على جميع المسلمين؟ نقول: لا، هذا من فروض الكفايات، لا بد أن يوجد في الأمة من يقوم بهذا العلم ويقضي ويفتي الناس فيما يحتاجون إليه من هذا العلم.

أنتقل بعد ذلك إلى الآداب المتعلقة بطلب العلم:

أول هذه الآداب: إخلاص النية فيه لله -عز وجل-؛ لأن العلم كما تقدم قُربة يتقرب بها المتعلم إلى ربه سبحانه، والعبادة يشترط لها الإخلاص والمتابعة، فلا بد أن ينوي النية الصالحة في طلبه للعلم، ويدل لهذا الأدب حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من تعلم علما مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة» يعني لم يجد ريحها، أخرجه أبو داود وغيره، من تعلم العلم لأجل أن يصيب به عرضا من الدنيا، أعراض الدنيا كثيرة قد يريد بطلب العلم الوظيفة، أو قد يريد المال أو الجاه أو ثناء الناس، أو نحو ذلك من أعراض الدنيا، هذا متوعد بهذا الوعيد الشديد.

ومما يدل على إخلاص النية في طلب العلم حديث عظيم أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كل ما أراد أبو هريرة -رضي الله عنه- أن يحدث به يغشى عليه، كما جاء في رواية ابن حبان، ثم يُفِيق، فإذا أراد أن يُحدِّث بهذا الحديث يُغشى عليه ثم يُفِيق، فعل ذلك ثلاث

مرات، ثم لما أفاق الثالثة قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها».

هذا فيه أن كل نعمة يُنعِمُ الله -عز وجل- بها على العباد سوف يسألهم عنها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، ما معنى أن يُسأل الإنسان عن النعم؟ يعني هل شكَر النعم أو ما شكَر النعم؟ شُكر النعم يكون بالقلب وباللسان وبالعمل، يكون بالقلب: الاعتراف أن الله -عز وجل- هو المُنعِم وحده دون ما سواه، وباللسان: بأن يُثني على الله -عز وجل- أنه هو المُنعِم، ويذكر نعمه -جل وعلا-، ولا يكتم هذه النعم، وأن يتحدث بالنعم التي أنعم الله -عز وجل- بها عليه.

وأما بالعمل: فأن يسخّر هذه النعم في طاعة الله، ولا يعصي الله -عز وجل- بشيء من نعمه.

فلمّا «قال له فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنّك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل» يعني قيل في الدنيا وأخذت ما تريد من المحمدة والثناء في الدنيا قال: «ثم أمر به فسحب على وجه حتى ألقي في النار».

الثاني: «رجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرَفها، قال: فما عمِلت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار»

وأما الثالث فهو «رجل قد وسع الله -عز وجل- عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرَفها، قال: فما عملت فيها، قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق لك إلا أنفقت لك فيها، قال: كذبت، ولكنك أنفقت ليقال جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار».

هذا الحديث دخل يومًا رجل على معاوية -رضي الله عنه- في وقت خلافته فحدَّثه بهذا الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- فقال معاوية -رضي الله عنه-: قد فُعِلَ بهؤلاء مثل هذا فكيف بِمن بقي من الناس؟

لأن من هؤلاء الثلاثة؟ مجاهد في سبيل الله وعالم وقارئ للقرآن والثالث جواد منفق في سبيل الله، ومع ذلك سحبوا على وجوههم حتى ألقوا في النار.

يقول: إذا فُعل بهؤلاء فكيف بغيرهم، ثم بكى معاوية -رضي الله عنه- بكاءً شديدا حتى ظننا أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح وجهه فقال صدق الله ورسوله، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٥-١٦].

وعن كعب بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «من طلب العلم ليجاريَ به العلماء أو ليماريَ به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه: أدخله الله النار» رواه الترمذي.

هنا يرد سؤال، بأي شيء يكون الإخلاص في طلب العلم؟

يقال في هذا أولا: أن تنوي رفع الجهل عن نفسك، كل منا يجهل من مسائل العلم أشياء كثيرة فتنوي بطلبك للعلم أن ترفع الجهل عن نفسك، وأيضًا ترفع الجهل عمن حولك من الناس، ترفع الجهل عن والديك، عن إخوانك، عن أخواتك، عن قرابتك، عن أهل حيّك، أهل مسجدك، هذه نية صالحة، أيضا تنوي بطلب العلم حفظ شريعة الله -عز وجل-، فإن الشريعة لا تُحفظ إلا بالعلماء، وتنوي أيضا حماية شريعة الله -عز وجل- والدفاع عنها، فإن الشبهات التي تثار حول الإسلام وحول السنة وحول القرآن وغير ذلك لا يمكن أن تدفع إلا بطلاب علم، إذن هذه نية صالحة.

أيضا تنوي بطلبك للعلم امتثال أمر الله -عز وجل- فإن الله -عز وجل- أمرنا بالعلم، فقال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فأمرنا بالعلم.

أيضًا ننوي بطلب العلم اتّباع شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإنه لا يمكن أن تتبع شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن تلزم سنته -عليه الصلاة والسلام- إلا بالعلم، فهذا مما يحصل به الإخلاص في طلب العلم الشرعي.

كم ذكرت من نقطة؟ كم؟ طيب نعيدها

الأولى: امتثال أمر الله -عز وجل-، والثانية: رفع الجهل عن نفسه، وأيضًا رفع الجهل عن الناس، وأيضًا حماية الشريعة وحفظ الشريعة، امتثال أمر الله -عز وجل- وأيضا اتباع شريعة النبي -عليه الصلاة والسلام- ولزوم سنته.

إذا استحضر طالب العلم في طلب العلم هذه النية الصالحة فإنه يكون مخلصا إن شاء الله.

يقول الزرنوجي في تعليم المتعلم طريق التعلم، وهذا كتاب نافع مفيد، تعليم المتعلم طريق التعلم يقول -رحمه الله-: "وينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رِضاء الله والدّار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجُهال، وإحياء الدين وإبقاء الإسلام، فإن بقاء الإسلام بالعلم" ثم قال -رحمه الله- : "وينوي به الشكر على نعمة العقل وصحة البدن" وهذه ما ذكرناها، ممكن أن تضاف، يقول: ينوي بطلبه العلم شكر الله -عز وجل- على نعمة العقل وصحة البدن، هل يمكن أن تطلب العلم من غير سلامة العقل وصحة بدن؟! ما يمكن هذا، فمن شكر الله -عز وجل- أنك تطلب بهذا العقل الذي منّ الله -عز وجل- به عليك أن تطلب به العلم النافع، وأن تُسَخّر هذا البدن في عبادة وقربة وهي طلب العلم.

قال -رحمه الله-: "ولا ينوي به إقبال الناس عليه ولا استجلاب حطام الدنيا والكرامة عند السلطان وغيره" إلى أن قال: "ومن وجد لذة العلم والعمل به قلَّما يرغب فيما عند الناس".

وقال أيضا -رحمه الله-: "وينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك، فإنه يتعلم العلم بجهد كبير فلا يصرفه إلى الدّنيا الحقيرة القليلة الفانية".

الإنسان في طلبه للعلم قد يمضي عليه عشر سنين، خمس عشرة سنة عشرين سنة حتى يحصّل قدراً مناسباً لبثه بين الناس، هذا جهد كبير، أتعب فيه البدن وأنفق فيه المال، فلا ينبغي له أن يضيع هذا الجهد الكبير للذة فانية من لذات الدنيا كمحمدة الناس أو حصول شيء من حطام الدنيا، فينبغي له أن يرغب فيما عند الله -عز وجل-.

والذهبي -رحمه الله- له كلام نفيس في السير تراجعون في المجلد السابع صفحة ١٥٢، ولولا خشية الإطالة لقرأته عليكم، ولكن أُنبه لما ذكره بعض السلف من قولهم: طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله، هذا فيه أنه لا يشدد طالب العلم على نفسه في أول طلبه للعلم في النية، قد تدخل عليه شيء من النية الفاسدة أو شيء من حظوظ الدنيا فلا يصرفه ذلك عن الاستمرار في طلب العلم؛ لأن الشيطان قد يدخل عليه من هذا الباب؛ ليصرفه عن أن يطلب العلم، يقول: أنت ما طلبت العلم لله تريد ماذا؟ أن تفوق أقرانك، تريد أن يُثنى عليك، وهو لا يزال في بداية الطلب، لم يتمكن من العلم ولم يتمعن في آيات الله -عز وجل- وفي سنة نبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يقوى إيمانه، وحتى يعرف لذة العلم كما ذكر الزرنوجي قبل قليل، قال: "قلّما يجد شخص لذة العلم فيرغب في غير العلم" أبدا لأنه إذا وقرَ الإيمان في قلبه وازداد قربا إلى الله -عز وجل- وعلما بما يستحقه -جل وعلا- من الإجلال والتعظيم قَلَّمَا يَرْغَب فِي شيء من حطام الدُّنيا الفانِية، إذن يستمر في طلب العلم، وبإذن الله هذا العلم سوف يقوده إلى إخلاص النية لله -عز وجل-.

الإمام أحمد -رحمه الله- كان مرة يخاطب أحد تلاميذه لما قيل للإمام إن الناس يُـــثنون عليك ويمدحونك، قال الإمام أحمد -رحمه الله- كلمة عظيمة، قال: "إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس" لا تغتر بمدح الناس وثناؤهم عليك، أنت أدرى بنفسك، وكل من عنده ذلك التقصير في حق الله -عز وجل- فلا تغتر بمدح الناس ولا بثنائهم.

من آداب طالب العلم أن يكون للعلم أثر عليه فيورثه الخشية لله -عز وجل-، فهذا هو العلم النافع، العلم خشية الله كما قال جماعة من السلف، ويدل لهذا الأدب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] يخشى فِعل، أين الفاعل؟ نعم، العلماء، وهو فاعل مؤخر، ولفظ الجلالة ما إعرابه؟ واقع موقع المفعول به مقدم.

لكن هنا فائدة، يقولون: إن الأدب مع الله -عز وجل- أن لفظ الجلالة إذا وقع موقع المفعول به لا يقال مفعول به، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- هو الفاعل بغيره ولا يفعل أحد به، وإنما يقال منصوب على التعظيم، فيُفهم أنه وقع موقع المفعول به، طبعا هذه مسألة اصطلاحية، لو قال إنسان مفعول به المقصود الاصطلاح عند النحويين هذا لا حرج فيه، لكن الأكمل والأدب مع الله -عز وجل- أن لفظ الجلالة أو أي اسم من أسماء الله -عز وجل- إذا وقع موقع المفعول به أن نقول ماذا؟ منصوب على التعظيم، فيَفهم من يعرف هذه الفائدة أن المراد أنه مفعول به.

بإعرابنا لهذه الآية عرفنا أن العلماء هم الذين يخشون الله -عز وجل-، السؤال هنا لماذا العلماء يختصون بخشية الله -عز وجل- أكثر من غيرهم، ذكر ابن رجب -رحمه الله- أن السبب في ذلك أمران:

الأمر الأول: أن العلماء هم الأعلم بالله -عز وجل-، وبمعاني أسمائه وصفاته، وما يستحقه -جل وعلا- من الإجلال والتعظيم، فلا شك أن هذا يوجب الخشية لله -عز وجل-.

والأمر الثاني: أن العلماء هم الذين يعلَمون ما يحبه الله من الاعتقادات والأعمال فيمتثلونه، ويعلمون ما يَكره الله -عز وجل- من الاعتقادات والأعمال فيجتنبونه، فلهذا كانوا أكثر خشية لله -عز وجل- من غيرهم.

من الآداب أيضا في طلب العلم: أن يشتغل طالب العلم بالأهم من العلوم فالمهم، فأهمُّ ما يُشتغل به: هو علمُ الاعتقاد وفهمُ معاني كلامِ الله -عز وجل- وسنةِ رسولِهِ -صلى الله عليه وسلم-، والعلمُ بالأحكامِ الشرعيةِ وهكذا، وقد ذكرَ ابن الجوزِي -رحمه الله- في الحثِّ على حفظِ العلم أنه قد تشاغلَ خلقٌ كثيرٌ ببعضِ العلوم، وأعرضوا عن الفقه، فلما سُئلوا عن مسألة في الأحكام افتضحوا.

بعض الناس يشتغل بدقائق العلم، ولو تسأله ما معنى قول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] ما معنى الفلق؟ لا يعرف، هو يقرأها كل يوم، بل لو تسأله عن بعض معاني الفاتحة لا يعرف، تسأله عن أركان الصلاة كم عددها وما هي، وكم واجبات الصلاة وما هي؟ لا يحسن إذا سَها في صلاته ماذا يصنع؟ ما يُحسن، مع أنه قد يشتغل ببعض العلوم الأخرى ودقائق المسائل التي قد لا يحتاج إليها في عمره إلا مرة أو مرتين، هذا خلل، ينبغي أن يبدأ بالأهم فالمهم.

ومما ذكر من الجوزي في كتابه هذا موقف صار لبعض من اشتغلوا ببعض العلوم وتركوا ما هو أهم، يقول أخبرنا أبو منصور القزاز، أخبرنا الخطيب قال: سمعت البرقاني، يقول: قال أبو بكر الأبهري الفقيه، انتبه لهذا الوصف، وصفه بالفقيه، كنت عند يحيى بن صاعد وهو من المحدثين، فجاءته امرأة فقالت: أيها الشيخ، ما تقول في بئر سقطت فيها دجاجة فماتت، هل الماء طاهر أم نجس؟

لاحظ أن هذه مسألة يحتاج الناس إليها، هل يتوضأ من هذا البئر بعد أن سقطت فيه دجاجة فماتت، من المعلوم أن الدجاجة إذا ماتت أصبحت ميتة، والميتة نجسة، هل الماء الآن أصبح نجسا أو لا؟ فلما سألته هذا السؤال ماذا قال لها؟ قال: ويحَك كيف سقطت الدجاجة في البئر؟ قالت: لم تكن مغطاة.

فقال: ألا غطيتِها حتى لا يقع فيها شيء.

لاحظتم الآن، الأبهري الفقيه كان حاضـــرا، ماذا قال؟ قال: قلت يا هذه، إن كان الماء تغير وإلا فهو طاهر.

لاحظ أسـئلة الأول، ما عنده جواب، ما يمكن أن تقول لمن يسـتفتيك لماذا لم تفعل كذا؟ الأمر وقع الآن أنا أريد فتوى، لا تقول لماذا لم تُغَطّه؟ ما غطيته، وقعت، ما الحكم؟

مباشـــرة أجاب الفقيه بجواب واضـــح، إن كان الماء تغير -يعني بالنجاســـة- فهو نجس لا يجوز أن يستعمل، وإن كان لم يتغير فإنه باقٍ على طهوريته، هذا يدلك على أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بما يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه أقل من ذلك، يعني بعض الناس يشـتغل بمسـائل البنوك والمصـارف، ويدقق فيها، وتسأله عن بعض الجزئيات في صلاته أو بعض المسائل في صلاته أو بعض المسائل في اعتقاده وإذا به لا يعرفها، هذا خلل في الأولويات في طلب العلم.

من الآداب في طلب العلم: توقير العلماء واحترامهم، فطالب العلم ينبغي له أن يوقر مشـــايخه الذين أخذ عنهم العلم، وأن يعرف قدرهم وفضـــلهم، وأن يحذر من التنقص لهم، ويدلُّ لهذا الأدب حديث أبي موسى -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» أخرجه أبو داود.

وعن عُبادة -رضـــي الله عنه- أن النبي -صـــلى الله عليه وســـلم- قال: «ليس منا من لم يُجِلَّ كبيرَنا ويرحم صغيرَنا ويعرِف لعالمنا حقَّه».

قال ابن عبد البر -رحمه الله- في جامع بيان العلم وفضله: وروينا من وجوه عن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قُربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال له زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فقال ابن عباس: هكذا يُفعل بالعلماء والكُبراء، فهذا ابن عباس -رضي الله عنهما- مع علمه وفقهه وجلاله وكونه من آل بيت النبي -عليه الصلاة والسلام- ومع ذلك أجلَّ شيخه زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

قال الزرنوجي -رحمه الله-: ومن توقير المعلم ألا يمشي أمامه، ولا يجلس مكانه، ولَا يبتدئ الكلام عنده إلَّا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده، ولا يسأل شيئًا عند ملالته، ويراعي الوقت، ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج.

انظر الأدب؟ يعني إذا جاء إلى بيت الشيخ ينتظر حتى يخرج الشيخ، هل يوجد أحد اليوم يعمل بهذا؟ ينتظر عند الباب حتى يخرج؟

على كل حال أمور الأدب قد تختلف باختلاف الأعراف، فما تعارف الناس على أنه مخل بالأدب فينبغي أن يجتنب، وما تعارف الناس على أنه لا يخل بالأدب كما هو الحال عندنا اليوم لو ذهب إلى أحد المشايخ وطرق الباب لا يعد هذا مما يخل بالأدب، لكن في ذلك الزمان كانوا يرونه مما يخل بالأدب.

قال: فالحاصل أنه يطلب رضاه ويجتنب سخطه ويمتثل أمره من غير معصية الله تعالى.

ثم قال: ومن توقيره توقير أولاده وما تعلق به.

قال عبدالله بن الإمام أحمد، وهذا يتعلق بالإكثار من الدعاء للمشايخ، مشايخنا الذين درسنا عليهم ينبغي لنا أن نكثر من الدعاء لهم، تقرن هذا مع الدعاء للوالدين، إذا دعوت لوالديك فادعوا لمشايخك، هذا من هدي السلف.

الإمام أحمد -رحمه الله- قال له عبدالله ابنه: أي رجل كان الشافعي، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، قال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فهل لهذين من خلف أو عنهما من عوض.

انظر إلى هذا التشبيه البليغ للإمام أحمد -رحمه الله- يشبّه الشافعيَّ الإمام محمد بن إدريس -رحمه الله- بأنه كالعافية للناس، هل الناس يستغنون عن العافية؟ وكالشمس للدنيا، هل أهل الدنيا يستغنون عن الشمس؟ كذلك الناس لا يستغنون عن العلماء.

إذا ذهب العلماء حصل الضلال للناس، ولهذا جاء في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من قلوب العباد، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسـًا جهالاً فسُئِلوا فأفتَوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

أيضـًا يحذَّر طالب العلم من الوقيعة في العلماء، وفي القدح فيهم؛ لأن الطعن في العلماء يرجع إلى الطعن في الشريعة؛ لأن العلماء هم حملة الشريعة، والقدح في علماء الإسلام مؤذن بالحرب من الله -عز وجل- على من قدح فيهم وآذاهم، لما جاء في الحديث القدسي أن الله -عز وجل- قال: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»، وإذا لم يكن العلماء أولياء الله فمن أولياء الله؟ والمقصود العلماء العاملون بعلمهم، أهل الديانة والورع والسنة ولزوم التوحيد والاعتقاد الصحيح.

ولهذا قال الإمام أحمد -رحمه الله-: إذا رأيت الرجل يغمز -يعني يطعن في- حماد بن سلمة وأحد العلماء فاتهمه على الإسلام، فإنه يعني حماد -رحمه الله- كان شديدا على أهل البدع، فهذا نأخذ عندنا قاعدة: أن من يطعن في علماء السنة هذا دليل على أي شيء؟ على أنه من أهل البدع والضلال،

إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة، ليس حماد بن سلمة وحده، نقولها أيضًا في الإمام أحمد والشافعي ومالك، وفي هذا العصر الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين والشيخ الفوزان وأئمة السنة في هذا العصر، إذا وجدت من يطعن فيهم فاعلم أن هذا الطعن يدل على أنه من أهل الضلال والبدع؛ لأنه ما طعن فيهم لذواتهم، طعن فيهم لما يحملونه من السنة والاعتقاد الصحيح.

من آداب طلب العلم: أن العلم يُؤخذ عن علماء السنة، ولا يُؤخذ عن علماء البدعة، فتحذر يا طالب العلم من الأخذ عن علماء البدع، وأيضًا عن أصحاب المناهج المُخالفة للسنة، والجماعات الحزبية المعاصرة، لا تأخذ إلا عمن عُرف بلزوم سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- واعتقاد السلف الصالح.

وهذا اليوم قد ابتلي الناس به مع الانفتاح الإعلامي الآن في هذه الوسائل الحديثة، فبالإمكان أن يطلب الإنسان العلم عند كل أحد، فلا تطلب العلم إلا عند من تعلم عقيدته، وتعلم ديانته أيضًا، لا أبد من هذه الأمرين، أن تعلم أنه عالم من علماء السنة وأنه عامل بعلمه لأن الذي ليس عنده ديانة قد يعطيك من الكلام ما يخالف الحق، وسيأتي ما يوضح هذا أيضا في بعض الآثار.

أضرب على هذا مثالا، طبعا لماذا يقال: لا تطلب العلم عند علماء البدع، التلميذ في الغالب يتأثر بالشيخ، ويقتدي بالشيخ، ويصير على طريقة الشيخ، ولهذا من طلب العلم عند علماء البدع تأثر بهم، فأصبح منهم.

وذكرت مثالا في أكثر من مناسبة، وهو محمد بن حميد الحنبلي المتوفى سنة ألف ومائتين وخمس وتسعين للهجرة، يعني في آخر القرن الثالث عشر، هذا في أول أمره طلب العلم على الشيخ عبدالله أبا بطين، الشيخ عبدالله أبا بطين -رحمه الله- مفتى الديار النجدية في زمانه، وهو المتوفى سنة ألف ومئتين واثنتين وثمانين للهجرة، ابن حميد هذا طلب العلم على الشيخ عبد الله أبا بطين في عنيزة لما كان الشيخ قاضيًا هناك، ثم بعده رحل إلى مكة وغيرها من بلاد الإسلام ليطلب العلم، فأخذ عن علماء

البدع، وممن أخذ عنه أحمد بن زيني دحلان المعروف بعدائه للدعوة السلفية في نجد، معروف بعدائه لدعوة الشيخ محمد من عبد الوهاب -رحمه الله-.

فتأثّر التلميذ ابن حميد بشيخه دحلان، فماذا ترتب على ذلك؟ هذا ابن حميد له كتاب في تراجم علماء الحنابلة، جعله ذيلا على كتاب ابن رجب -رحمه الله- وهو ذيل طبقات الحنابلة، طبعا حتى يتضح الأمر، ابن أبي يعلى ألف كتابا بعنوان طبقات الحنابلة، ترجم فيه لعلماء الحنابلة من الإمام أحمد إلى زمان ابن أبي يعلى، ثم جاء بعده ابن رجب فوضع ذيلا على هذا الكتاب إلى وفات ابن رجب، جاء ابن حميد المعنِي في هذا الكلام فوضع ذيلا إلى زمانه إلى قبيل وفاته، لكن ما سماه الذيل، سماه السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة.

هذه الحقبة الزمنية -لاحظ- من وفاة ابن رجب، ابن رجب متوف سنة سبعمائة وخمس وتسعين، إلى وفاة بن حميد سنة ألف ومائتين وخمس وتسعين، هذه الحقبة الزمنية فيها كبار علماء أئمة الدعوة النجدية، وهُم علماء حنابلة، كان من المفترض أن يترجم لهم أم لا؟ ترجم لهم وقل ما تشاء، لكنه أعرض عن ذكرهم، وكأنهم ليسوا علماء، حتى الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يترجم له، وإنما ترجم فقط لعالم واحد من أئمة الدعوة وهو من؟ شيخه عبدالله أبا بطين -رحمه الله تعالى-، أما البقية فلم يترجم لهم، هذه يدلّك على ماذا؟ على أن في النفس شيئا، من أين أتى هذا؟ من أخذِه عن علماء البدعة دحلان وأمثاله، فلهذا ينتبه طالب العلم لا يأخذ من علماء البدع.

ولهذا في مقدمة صحيح مسلم يقول محمد بن سيرين -رحمه الله-: "إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم"، وعن المنذر -هذا الأثر مهم- عن المنذر الجهني، وكان قد دخل في هذه الأهواء يعني دخل في البدع ثم تاب ورجع فكان يقول: "اتقوا الله وانظروا عمّن تأخذون هذا العلم، فإنا كنا ننوي الآخر" ما معناه؟ يعني نروي لكم ما يضلكم.

فلا تأمن المبتدع، أهل البدع أهل أهواء، يتبعون أهواءهم ما يتبعون السنة، ولهذا قال الأوزاعي -رحمه الله- كما في ترجمته في سير أعلام النبلاء قال الأوزاعي -رحمه الله-: " ما ابتدع رجل بدعة إلا نُزع الورع" فربما أن هذا المبتدع يروي لك أشياء تضرك في دينك وعقيدتك فتنتبه عن الأخذ منه.

ومن الآثار في هذا أن محمد بن إسحاق ابن منده الأصبهاني -رحمه الله-، وهو من علماء الحنابلة. يقول: طفت الشرق والغرب مرتين. طفت الشرق والغرب يعني لأجل أن يأخذ الأحاديث، أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال: ولم أسمع من المبتدعين حديثًا.

من آداب طالب العلم أيضًا: أن يكون عالي الهمة في تحصيله للعلم، فمتى ما كان طالب العلم ضعيف الهمة فاته كثير من العلم ولم يحصل ما يصبو إليه منه.

ومما يعين على علو الهمة الاطلاع على حال السلف في طلبهم للعلم الشرعي، وقراءة سيرتهم، وملازمة العلماء، والنظر في أحوالهم، والاقتداء بهم.

من المواقف في ذلك التي تشحذ الهمم أنه قيل للشعبي -رحمه الله- من أين لك هذا العلم كله؟ قال: "بنفي الاعتماد"، يعني نلت هذا العلم بترك الاعتماد على غيري، "والسير في البلاد" يعني الرحلة في طلب العلم، "وصبر كصبر الحمار"، الحمار يضرب به المثل في الصبر، "وبكور كبكور الغراب" هذا فيها التبكير إلى مجالس العلم، لا كما يحصل اليوم بعض الطلبة، تأتي في الجامعة مثلا أو في المعهد أو كذا يبدأ الأستاذ في الشرح وإذا بالطالب يأتي بعده، هذا ليس من الأدب في الطلب، الأدب أن يأتي قبل أستاذه.

أيضًا مما يشحذ الهمم، قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: أول ما خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، الفرسخ بالمقاييس المعاصرة كم يساوي؟ خمسة كيلو مترات، يعني مشى كم؟ خمسة آلاف كيلو، من الرياض إلى جدة كم كيلو؟ ألف، يعني كأنه ذهب إلى جدة خمس مرات، ما هذا؟ يقول: بعد سبع سنين من المشي في طلب العلم

يقول لم أحصِ، يعني أنه زائد على ذلك، هذا يدلك على ماذا؟ همم عالية، ونحن اليوم يسر الله -عز وجل- لنا من الأسباب ما لم يتيسر لغيرنا، ممكن تطلب العلم على الشيخ من بُعد أم لا؟ وهذا ما لم يكن في زمان أبداً، إلا في هذا الزمان.

كان طالب العلم يرحل إلى عالِم في بلد آخر ليأخذ عنه العلم فإذا دخل قالوا: صلّينا عليه بالأمس، فاته الآن، راحت رحلته هذه، ما حصّل ما يريد من الأخذ عن ذلك العالم، وأنت اليوم يمكنك أن تكون تلميذاً للشيخ ابن باز تسمع دروسه وتقرأ كتبه، وكذلك الشيخ ابن عثيمين وغيرهم من العلماء الذين ما أدركتهم بل ربما وُلدت بعد موتهم، فهذا فضل من الله، وتيسير من الله.

عندنا وسائل يسيرة يسّرت علينا العلم، وهيّأت لنا طلب العلم لكن ما بقي إلا الهمة العالية والإخلاص لله -عز وجل-.

مما يدل على أن العلم هو أفضل اللذات، أن بعض الملوك والخلفاء فيما مضى كانوا يتمنون أن يجلسوا في حلق العلم للتعليم والتحديث، فقد قيل للمنصور الخليفة العباسي هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله، خليفة يعني كل شيء عنده، هل بقي شيء من اللذات؟ فقال: بقيت خصلة أن أقعد على مِصطبة يعني مكان مُرتفع وحولي أصحاب الحديث، ويقول المستملي من ذكرت رحمك الله؟ فأقول حدثنا فلانٌ، قال حدثنا فلانٌ، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ومما يدل على الهمة في طلب العلم أن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- رحل مسيرة شهر ليسمع حديثا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن سمعه.

ومما جاء في صبر العلماء على تقييد العلم أن الإمام البخاري -رحمه الله- صاحب الصحيح كان يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب الفائدة التي تمر بخاطره، يعني هو لما استلقى يريد النوم مرت بذهنه فائدة يخشى أن تفوت قام ماذا يصنع؟ يوقد السراج، إيقاد السراج ليس كحالنا اليوم، اليوم تضغط على الزر تضيء المصباح بأيسر ما يكون، لا، هو يوقد السراج ثم يقيّد الفائدة ثم

يذهب فينام، فربما تكرر معه ذلك في الليلة الواحدة عشرين مرة، هذا صبر عظيم، ما يصبر عليه كل أحد، ولهذا كانوا أئمة، فلهذا لا بدَّ لطالب العلم من أن يتحلى بالصبر.

من آداب طالب العلم أيضا أن يعمل بالعلم الذي تعلمه، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتعوَّذ من العلم الذي لا ينفع، فروى مسلم في الصحيح من حديث زيد بن أرقم -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

وعن أسامة -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه» يعني أمعاؤه «فيدور بها كما يدور الحمار برَحاه، فتجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه» أخرجه البخاري ومسلم.

ويروى عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

ولهذا قال الإمام أحمد -رحمه الله-: ما كتبت حديثاً إلا وعملت به ولو مرة، يعني ولو مرة واحدة، قال: لألّا يكون عليّ حجة، حتى الركعتان بين الأذان والإقامة في المغرب، في بعض الروايات أنه قال: حتى حديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- احتجم وأعطى الحجام دينارا، قال فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجام دينارا.

ولا شك أن العمل بالعلم يثبّتُ العلم في القلب، وانظر هذا في صفة الصلاة، فأنت إذا عرفت فيها سنة من السنن ثم عملت بها في صلاتك فإنك لا تنساها، أما لو تركتها من غير عمل فإنك لا تلبث أن تنسى هذه السُنّة، ولهذا قال قوم لبِشر بن الحارث: تُحدثنا، طلبوا منه التحديث، فقال: تُؤدّون زكاة الحديث؟

قالوا: وللحديث زكاة؟ يستغربون السؤال، الزكاة للمال.

قال: نعم، إذا سمعتم الحديث، فما كان في ذلك من عمل أو صلاة أو تسبيح استعملتموه، يعني عملتم به.

من الآداب في طلب العلم: الاستمرار في الطلب حتى الموت، فلا يتوقف طالب العلم عن تحصيل العلم والإفادة مهما بلغت منزلته ومهما بلغ عمره، ولما رأى رجل مع الإمام أحمد -رحمه الله- محبرة فقال: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين؟ يعني كيف تحمل معك محبرة، المحبرة مثل القلم يكتب بها، فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، يعني إلى الموت.

وقال الإمام أحمد -رحمه الله-: غنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال حتى الممات إن شاء الله.

وقيل له مرة أخرى مثل ذلك فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد.

وسئل سفيان بن عيينة -رحمه الله-: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟

ماذا قال؟ هل قال أجهلهم؟

قال: أعلمهم. لماذا قال أعلمهم؟ قال: لأن الخطأ منه أقبح.

إذا أخطأ العالم سيترتب على هذا أن أتباعه ومن يأخذون عنه سيقعون في الخطأ أيضًا.

وقال ابن أبي غسّان: لا تزال عالمًا ما كنت متعلمًا، فإذا استغنيت كنت جاهلًا.

ولهذا نعرف أناسًا تخرجوا من كليات شرعية، حصّلوا فيها علمًا غزيرًا، ثم تركوا الاستمرار في الطلب، واشتغلوا بالدنيا أو غير ذلك، تأتيهم بعد سنوات تجدهم كالعوام؛ لأنهم لم يتعاهدوا هذا العلم ولم يتزودوا منه.

من الآداب في طلب العلم أيضًا، أن يتحلى طالب العلم بالصبر في تحصيله، ولهذا قال يحيى بن أبي كثير -رحمه الله-: لا يُستطاع العلم براحة الجسم.

وقيل: العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك.

أما أن يجعل طالب العلم طلبه للعلم في أوقات فراغه فقط، ولا ينصرف بكلية إلى الطلب، فهذا لن يحصّل العلم الذي يرومه أهل العلم.

ولهذا فقد روى ابن عبد البر -رحمه الله- في كتابه جامع بيان العلم وفضله عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة -وهذا الحديث مخرج عند غيره- يقول أبو هريرة: لولا آيتان في كتاب الله -عز وجل- ما حدّثت حديثا، ثم تلا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ثم قال: وَإِنَّ إِخْوَانَنَا الْمُهَاجِرِينَ كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون.

هذا قال فيه ابن عبد البر -رحمه الله-: فيه ملازمة العلماء، والرضا باليسير للرغبة في العلم، والإيثار للعلم على الاشتغال بالدنيا وكسبها.

ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ذللت طالبا فعززت مطلوبا.

وقالوا: من لم يحتمل ذُلّ التعليم ساعةً بقي في ذُل الجهل أبدا.

من الآداب في طلب العلم أيضا العناية بحفظ العلم، ولعل هذا آخر هذه الآداب التي نختم بها.

وأعظم ما يُحفظ هو كلام الله -عز وجل-، فالقرآن الكريم هو أصـــل العلوم، وأول ما يعتنى بحفظه، وقد جرى عمل العلماء على هذا، فإذا جاءهم طالب علم يريد أن يطلب العلم قالوا له: هل تحفظ القرآن؟

فإذا قال لا أحفظه قالوا: اذهب فاحفظ القرآن ثم اطلب العلم.

ولأن حفظه للقرآن ييسر عليه أيضا طلب العلم، فإن طلب العلم فيه الاستدلال بآيات القرآن، فإذا كان حافظا لها مستظهرا لها كان هذا مما يعينه على الطلب.

قال عبد الرزاق ابن همام -رحمه الله-: كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمّام فلا تعُدّه.

ما معناه؟ كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعده، يقصد العلم الذي في صدره؛ لأنه لو كان معه كتب فيها ذكر الله ما يمكن يدخل بها الحمام.

ومما جاء في الحث على الحفظ قول أحمد الصيرفي:

ليس بعلمٍ ما حوى القِمَطْرُ ** ما العلمُ إلا ما حواهُ الصدرُ

القِمَطِر: قالوا هي خِزَانَةُ الكُتُب.

ليسَ بعلمٍ ما حوى القِمَطْرُ ** ما العلمُ إلا ما حواهُ الصدرُ

فذاك فيهِ شرفٌ وفخرُ ** ورُتبةٌ جليلةٌ وقدرُ

ومما يعينُ على الحفظ:

أولا: لُزومُ تقوى الله -عز وجل-، قال ابن مسعود -رضي الله عنه- إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله.

وقال الشافعي -رحمه الله- في بيته المشهور:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي ** فأرشدَني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نورٌ ** ونور الله لا يؤتاه عاصي

ومما يعين على حفظ العلم حُسنُ النية والإخلاص لله -عز وجل، فكلما كان طالبُ العلم نيتُه صالحةً كان ذلك أعون له على حفظ العلم، ولهذا يُروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إنما يحفظ الرجل على قدر نيته.

ومما يعين على الحفظ اغتنامُ زمان الصغر في حفظ العلم.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: طلب الحديث في الصغر كالنقش في الحجر.

وهذا أمر معلوم، تجد أن الإنسان ما حفظه وهو صغير يكون ثابتا في قلبه بخلاف حال الكبَر، فإنه إذا حفظ يتفلّت منه هذا الحفظ.

ولكن لا يعني ذلك أن الكبير لا يحفظ، فإنه مع التكرار ومع الاجتهاد والصبر ودعاء الله -عز وجل- ييسّر الله -عز وجل- له الحفظ، لكن المقصود أنه يستثمر وقت الصغر لا يفوت عليه هذا الوقت خاصة وأن الصغير قد سلم من الشواغل، بخلاف الكبير الذي تزوج، عنده أولاد وعنده أمور أخرى، وظيفة ونحو ذلك، الوقت ضيّق والذهن مشتت، لكن من كان صغيرا فليستثمر هذا الزمن من عمره في أن يحفظ ما يتيسر له من كتاب الله أو من سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو من متون العلم.

جاء عن علقمة -رحمه الله- أنه قال: ما حفظت وأنا شاب فكأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة.

وألّف ابن الجوزي -رحمه الله- كتاباً سماه: الحث على حفظ العلم، وذكَر كبار الحفاظ، وهذا الكتاب مطبوع، قال فيه: فمن رُزق ولداً فليجتهد معه، والتوفيق من وراء ذلك، فينبغي له أن يعوّده النظافة والطهارة من الصغر، ويثقّفه بالآداب، فإذا بلغ خمس سنين أخذه بحفظ العلم.

هذا نستفيد منه متى يبدأ الأب مع ولده في طلب العلم، قال إذا بلغ خمس سنين فإن الحفظ في الصغر نقش في حجر.

ومما يذكر هنا الأثر الذي جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

لما مات النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لصاحب له من الأنصار: اذهب معي لنطلب العلم على كبار أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال له الأنصاري: أترى الناس يحتاجون إليك وفيهم أبو بكر وعمر؟

يقول: فتركته وطلبت العلم.

فلم يلبث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن حصّل علما.

قال: فرآني صاحبي الأنصاري وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فقال: هذا الفتى كان أعقل مني، أو كما قال.

لكنّه حصّل العلم هو صغير، لأنه توفي النبي -عليه الصلاة والسلام- وقد ناهز الاحتلام، يعني ناهز البلوغ .

أيضا مما يعين على ضبط الحفظ تكراره وإعادته مرة بعد مرة، والناس يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يثبت الحفظ في قلبه من مرات قليلة، ومنهم من لا يثبت إلا بمرات كثيرة، وكلٌ أدرى بنفسه.

وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «تعهدوا القرآن فإنه أشد تفصّيًا من صدور الرجال من النّعَم في عُقُلها»

وكان أبو إسحاق الشيرازي يُعيد الدرس مائة مرة.

وقال الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه: لا يحصّل الحفظ حتى يُعاد خمسين مرة.

وهنا قصة طريفة، أن فقيهًا أعاد الدرس في بيته مرارا كثيرة، فقالت له عجوز في بيته: قد والله حفظته أنا، فقال أعيديه، فأعادته.

فلما كان بعد أيام قال يا عجوز أعيدي ذلك الدرس، فقالت ما أحفظه، قال إني أكرر عند الحفظ لألا يصيبني ما أصابك.

تكرر مرتين وثلاثا وعشرا تظنك ضبطت الآن، لكن تعال بعد أسبوع، بل ربما بعد يوم أو يومين، تجد ماذا؟ الحفظ بدأ يتفلت.

ولهذا فهناك طرق في ضبط الحفظ عند أهل العلم وتدور حول التكرار والصبر على ذلك وأن يكون لك زميل تقرأ عليه ويقرأ عليك.

أيضا مما يعين على الحفظ الاطلاع على أحوال السلف في الحفظ، فهذا مما يزيد في الهمة.

قال الشعبي -رحمه الله-: ما كتبت سوداء في بيضاء إلا وأنا أحفظها، ولا حدثني رجل بحديث وأحببت أن يعيده.

أقتصر على هذه الآداب وأسأل الله -عز وجل- أن يرزقني وإياكم العلم النافع والعمل الصالح وأن يجعلنا جميعا موفقين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.